

ذكرى مولد الرسول

لمحاضرة صاحبة الفضيلة الأستاذة محمود شلستوت

مدرسة جامعة كبار العلماء وعضو بجم نؤاد الأول

في شهر ربيع الأول
من كل عام يقيم المسلمون
حفلات الذكرى ليلاد
النبي محمد صلى الله عليه
وسلم ، فينصبون
المرادقات ، ويرفون
الأعلام ، ويلقون الخطاب ،
ويذيعون الأحاديث ،
ويكتبون الفصول ،
يشرحون للناس فيها



مخطبون ويذيعون ويكتبون سيرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم
أوناحية من نواحي سيرته ، ويذكرون تشريعه وأحكامه
وطريقته في التأديب وإنهاض النفوس وتهذيب الأخلاق .
يذكرون أطواره التي مر بها في حياته قبل البثة وهو طفل
رضيع في بادية بني سعد ، وهو غلام حدث يرعى الغنم بمسكة ،
وهو شاب قوي جلد بمافر ويتجر ، ويحضر حرب الفجار
وحلف الفضول ، ثم يذكرون دعوته وكيف بدأت سرية ثم
كانت جهرية ، ويذكرون ما ناله من أذى قومه واضطهادهم له ،
وتضييقهم عليه حتى أخرجوه من دياره وأمواله إلى المدينة ،
فكانت الهجرة ، وكانت الحروب ، إلى أن نزل قوله تعالى بند
ثلاث وعشرين سنة من مبته « اليوم أكملت لكم دينكم
وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً »

•••

على هذا النحو يحتفل المسلمون بذكرى ميلاد الرسول في
يوم أو أيام ويقولون إنها ذكرى « رذ كر فإن الله كرى تنفع
المؤمنين » . ولقد كان المسلمون في عصورهم الأولى لا يعرفون

احتفالاً خاصاً بقيمونه في مثل هذه الأيام بقصد إحياء ذكرى
الرسول صلى الله عليه وسلم لأنهم كانوا يرون أن عظمته ليست
من جنس هذه العظائم التي يألّفها الناس في أفذاذهم ورجالهم ،
والتي يخشى عليها من الضياع والتلاشي في بطون التاريخ ،
فيحتاج بهاؤها في أذهان الناس إلى ما يذكّرهم بها في كل عام .
كانوا يؤمنون أن عظمته خالدة ، تظل دأماً قارة في النفوس ،
مائلة في القلوب ، مخرجة بالدماء ، مؤاخية للمقيدة ، تظهر في
أقوالهم إذا نطقوا ، وفي حركاتهم إذا تحركوا ، وسكوتهم إذا
سكنوا . تظهر في جميع شؤونهم الفردية والاجتماعية ، السرية
والعلنية ، الدنيوية والأخروية ، إلى يوم البث والجزاء ، بل وفي
التعميم الباقي الذي لا يبقى ولا يزول ؛ فهي عظمة قد رسمت لهم
باطن الحياة وظاهرها ، وحدودها ودوارها ، لم تقف عند
ناحية من نواحي الحياة ، بل لم تقف عند حدود هذه الحياة
الفانية فشملت جميع نواحي الحياة ، وامتدت إلى الحياة الآخرة
فكشفت عن حجب فيها وصورته ما يكون فيها للمحصن من
نعم ، وما يكون فيها للمسي من شقاء

لم تكن عظمته بانتصار في معركة ، ولا برأى في علم ،
ولا بنظرية في أرض أو سما ، وإنما كانت عظمتها عامة شاملة
بهذا آمن المسلمون في عصورهم الأولى يوم كان الإيمان قويا
في النفوس ، تشتمل جذوته فتلتهب الجوارح وتبذل الأتفس ،
ويضحى بالدماء في سبيل رسم خطى تلك العظمة والجد في
مرفقها وتبينها من مصادرها ونشرها على العالم مهذبة تقية ،
كي تحيا بها النفوس وتطمئن إليها القلوب ؛ وبذلك كانت جميع
أيامهم ، وجميع أوقاتهم ذكرى عملية لهذه العظمة
ذكرى عملية يتمثلون فيها بمبادئه وأحكامه ، وارشادانه
الحكيمة ، ويسيرون على نهجها فكانت إحالتهم مثلاً صادقاً ،
ومرأة صافية ترى منها عظمة الرسول لمن أراد من غيرهم معرفة
عظمة الرسول

كانوا يرون أن النبي صلى الله عليه وسلم وقد كرم الله قدره
ورفع ذكره أرفع قدراً وأعلى شأناً من أن يكرم كما يكرم آحاد
الناس بمخطة تلقى ، أو حديث يذاع ، أو فصل يكتب . كانوا
يرون أن الله قد كرمه وليس بمد تكريم الله تكريم : خلد اسمه

بشهر ربيع ، فوضوهما في مستوى العظمت الأخرى و جازوا
الناس في تكريم عظمائهم فكروا بأساليبهم . كرموه بالأنشيد ،
بالأزجال ، بالأناشيد ، وتفنونوا في المحاكاة حتى ساءوا عظمة محمد
في أسلوب روائى قصصى وقالوا : قصة المولد الشريف . وما كان
عظمة محمد أن تكون قصة وهمى الحقيقة الخالدة . ولما كان
ابتدع هذا الأسلوب في تكريم محمد كأثر من آثار الضعف حينما
ابتلى المصلون بالقول دون العمل ، وحينما انقطعت الصلة العملية
بينهم وبين شريعتهم صلى الله عليه وسلم

ابتدع هذا الأسلوب من التكريم بمد أن لم يكن ، فهل
يبحث الناس عن سبب ابتداعه ؟ وهل تساءلوا عن السر في أنه لم
يكن في المصور الماضية ، عصور القوة والإيمان ، ثم كان في
عصورهم ؟ هل انصرفوا إلى هذا الجانب الذى كان يرجى أن
يعرفوا منه أسباب الضعف الذى انتاب المسلمين وأن يعملوا على
تلافيها وإعادة الإسلام إلى مجده وقوته ؟ كلا ولستكنهم انصرفوا
إلى البحث في أنه بدعة أو ليس بدعة ؟ وإذا كان بدعة فهل هى
بدعة حسنة أو بدعة غير حسنة ؟ وهكذا اختلفت مذاهبهم
وتعددت آراؤهم وظلوا إلى يومنا هذا بين محبذ ومتكبر ، شأنهم
في كل شئ تناولوه بروح الجدل الذى صرفهم عن العمل . وما
ابتليت أمة في حياتها بشر من كثرة القول وقلة العمل . قد ابتلى
المسلون بالجدل في كل شئ ، فصرفهم عن العمل بقدر ما جادلوا :
جادلوا في العقائد ، جادلوا في الأحكام ، جادلوا فيما ليس من
العقائد والأحكام ، جادلوا في الكلمات والألفاظ ، جادلوا حتى في
القواعد التى وضعوها للجدل وهكذا صار الجدل شامها الشافل
قتلوا به عن فهم الإسلام ، وعظمة الإسلام ، وسر دعوة
الإسلام . تلهوا به عن إدراك مقومات الحياة ، فوقعت كل
الشموب الإسلامية في قبضة المستعمرين ونحت رأيتهم . وما من
شعب إسلامى اليوم إلا وتسمع مر شكواه ومرخه أئبته

• • •

كان جدرا بالمسلمين أن يعملوا جاهدين على دوام التأسى
برسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتزام رسالته التى لم تترك
سبيلا للمعادة إلا شرسه ودعت إليه ، ولا سبيلا للشقاء إلا
منته ونفرت منه . أصلحت العقيدة ، وكرمت بذلك جعل

في كتابه الخالد ؛ فذكره باسمه الصريح ، وذكره بوصف الرسالة ،
وذكره بوصف العبودية لله الواحد ، وذكره بعظمة خلقه ،
وذكره برحمته المؤمنين ، وبرحمته للناس أجمعين ، وذكره بأنه
الزكى للنفوس العلم للكتاب والحكمة ؛ وذكره بكل هذا كما
ذكره بأنه شهيد على أمته ، وبأنه صاحب المقام المحمود . ثم
جعل محبته من محبته ، وطاعته من طاعته ، وبيئته من بيئته

لم يقف التكريم الإلهى لمحمد صلى الله عليه وسلم عند هذا
الحد ، بل جعل له ذكرا في الأولين إذ كتبه في التوراة والإنجيل ،
وجعل له ذكرا في الآخرين إذ قرن بينه وبين اسمه الكريم في
كلمة التوحيد التى يكون بها الرء ملما ، والتى هى الحد الفاصل
بين الإيمان والكفر ، وإذ جعل المناداة باسمه جزءا من الأذان
الذى يقرر في كل يوم خمس مرات بصوت مسموع إيدانا
بالصلوات المفروضة وجهما المسلمين على عبادة الله . لم يكن بعد
هذا كله ما يلتبس أن يكون تكريما لمحمد . ومتى كانت هذه
العظمة نفسى حتى يذكر بها ؟ ومتى كان هذا التكريم يخفى حتى
نعمل على إظهاره ؟

• • •

آمن الأوائل بهذا كله فآمنوا بأن تعجيد رسولهم وتكريمه إنما
يكون من طريق اتباعه وإحياء سنته ، والتحلل بأخلاقه ، وإقامة
شرعه ودينه . آمنوا بهذا وعلموا أن الإيمان الحق يتم المحبة
الصادقة ، والمحبة الصادقة حقوق وعليها نيمات ، فمن حقوقها
المتابعة لمن يحب ، والرضا لما رضيه ، والفضب لما يقضيه . ومن
نيماتا تحمل المشاق والتضحية بالنفس في سبيل رضا المحبوب « قل
إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال
اقتربتموها وبجارة نخشون كسادها ومساكن ترشونها أحب
إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله
بأمره »

ظل المسلمون كذلك حتى خف ميزان الإيمان من قلوبهم
وانطفأ عنهم نور تلك العظمة وأقربت بصائرهم من أسرارها ولم
يبق لهم منها إلا صور مرسومة بحروف في الصحف والكتب
يرجون إليها كما يردونهم ذكرى تلك العظمة ؛ وكلما تذكرها